١٦ - تاريخ الأدب العربى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

ومع ذلك فلا يجرؤ شيوخ العشيرة على فرض أوامرهم فرضا ، أو إنزال العقوبات برجالها ، إذ كان كل منهم ولى نفسه وسيدها ، وله الحق أن يقتص ممن يناله بسوء :

فإن كنتَ سيِّدَنا سُدتنَا
وإنْ كنتَ للخالِ فاذْهَبْ فَخَلْ (١)

ولم يكن معنى الوفاء عند العربى الوثنى الخضوع لرؤسائه ، ولكن المساعدة الصادقة لمساويه وأنداده ، وكان قوى الصلة بفكرة القرابة ، وإن القبيلة أو العائلة التى تشتمل على غرباء عاشوا فى ظلها ، واستظلوا بحمايتها ، فان الذب عن هؤلاء أفرادا أو جماعات من أقدس الواجبات اللازم احترامها ، كما كان الشرف يقضى على الرجل منهم أن يقف بجانب قومه فيما جل من أمرها أو حقر

وَهَلْ أنَا إلاّ مِنْ غزيَّةَ إن غوَت
غَوِيتُ وَإنْ تَرْشُدْ غزيَّةُ أرْشُدِ ؟ (٢)

كما يقول دريد بن الصمة الذى تابع عشيرته بالرغم من رأيه المصيب فى غزوة كلفته رأس أخيه « عبد الله » ، وإذا نشد رجال القبيلة العون من أقاربهم فسرعان ما يُلَبّى نداؤهم دون اهتمام بقيمة الأمر الذى يقدّمون من أجله المعونة ، فاذا أسىء التصرف فيها تحملوا مغبّة ذلك طويلا قبل أن يعودوا إلى مكانتهم السالفة وإن انتفاعهم بالصداقة ليتضح بجلاء من هذه الأبيات التالية (٣) :

(١) الحماسة ١٢٢ (٢) الحماسة ٢٧٨ .

(٣) الأبيات التى يذكرها المؤلف لتراد بن الغيار وكان ابوه شيطانا من شياطين العرب وهو القائل :

ولا نرعى الهوون ولا الهوينا إذا خارت ضغابيس الرجال
بنا يستعطف الاثر المولى ويحسم داء ذى الداء العضال
ونحطم انف كل جبانطري شموخ الانف ينظر من عل

(المترجم)

فآخِ لِحَالِ السِّلْمِ مَنْ شِئْتَ وَاعْلَمَنْ
بأنَّ سِوَى مَوْلاكَ فى الحَرْبِ أجْنَبُ
وَمَوْلاكَ مَوْلاكَ الذى ان دعوْتَه
أجَابَكَ طَوْعاً وَالدِّمَاءُ تَصَبَّبُ
فلاَ تَخْذُلِ المَوْلى وإنْ كانَ ظالِماً
فَإنَّ بِهِ تُنْأى الأمورُ وتَرْأبُ (١)

وبالرغم من ذوقهم الجاف ، فليس ثمت ما هو أخص فى العرب الجاهليين والمسلمين على السواء من روح الفروسية والتضحية بالنفس لنجدة الصديق حتى ولو لم تكن هناك أية فائدة شخصية من وراء هذه التضحية ، ويقدّم لنا الشعر القديم البراهين الجمة على أنهم كانوا يمقتون نكث العهد الذى اتفق عليه بين التاجر وعميله ، أو الضيف ومضيفه ، وأدب العرب زاخر بالشواهد الجمة على صدق هذا الفضل ، وأقرب مثال إلى ذلك قصة السموأل الذى يضرب به المثل فى الوفاء فيقال هو « أو فى من السموأل » أو « وفاء كوفاء السموأل » ويقال إنه كان صاحب الحصن المعروف بالأبلق ، واحتفر فيه بئرا عذبة ، وكانت العرب تنزل به فيضيفها ، وتمتار من حصنه . ويقال إن امرأ القيس لما سار إلى الشام يريد قيصر نزل على السموأل ومعه أدراع كانت لأبيه ورحل إلى الشام فوجه ملك الحيرة جيشاً تحت امرة الحرث بن ظالم ثم قال للسموأل « أتعرف هذا ؟ » قال نعم هذا بنى . قال : « أفتسلم ما قبلك أم أقتله ؟ » قال : « شأنك ، فلست أخفر ذمتى ولا أسلم مال جارى » فضرب الحرث وسط الغلام ، فقطعه قطعتين ، وانصرف عنه فقال السموأل :

وَفيتُ بادرع الكندى إنى إذا ما ذُمَّ أقوام وَفيت
وأوصى عادياً يوماً بالا تهدّم يا سَموأل ما بَنيت
بنى لى عادياً حِصناً حصيناً وماء كلما شِئت استقيتُ (٢)

كما أن المثل البدوى الأعلى للكرم والسخاء هو حاتم طىء ، الذى يروى عنه كثير من الأقاصيص المستطرفة ، ويمكننا أن نعرف نظرة البدوى إلى هذا الموضوع مما ذكره الأغانى من أن أم حاتم وهى حبلى رأت فى المنام من يقول لها : أغلام سمح يقال له

(١) الحماسة ٣٢٧ (طبعة فريتاج) سنة ١٨٢٦ .
(٢) الأغانى ج ١٩ ص ٩٩ .

حاتم أحب اليك أم عشرة أغلبة كالناس ، ليوث ساعة الباس ، ليسوا بأوغال ولا أنكاس ؟ فقالت حاتم ، فولدت حاتما ، فلما ترعرع جعل يخرج طعامه فان وجد من يأكله معه أكله ، وإن لم يجد طرحه ، فلما رأى أبوه أنه يهلك طعامه قال له : الحق بالابل . ووهب له جارية وفرساً وفلوها ، فلما أتى الابل طفق يبغى الناس فلا يجدهم . ويأتى الطريق فلا يجد عليه أحداً ، فبينا هو كذلك إذ بصر بركب على الطريق فأتاهم فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال تسألونى عن القرى وقد ترون الابل ؟ وكان الذين بهم عبيد بن الابرص وبشر بن حازم والنابغة الذبيانى ، وكانوا يريدون النعمان فنحر لهم ثلاثه من الابل فقال عبيد : « إنما أردنا بالقرى اللبن ، وكانت تكفينا بكرة إذا كنت لابد متكلفاً لنا شيئا » فقال حاتم « قد عرفت ولكننى رأيت وجوها مختلفة وألواناً متفرقة ، فظننت أن البلدان غير واحدة ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا أتى قومه » فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله فقال حاتم : « أردت أن أحسن اليكم فكان لكم على الفضل ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب الابل عن آخرها أو تقسموها » ففعلوا ، فأصاب الرجل تسعة وتسعين بعيراً ومضوا على سفرهم إلى النعمان ، وأن أبا حاتم سمع بما فعل فأتاه فقال له : يا أبت طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر [1]

كما نسمع أن ابنة حاتم قد اقتيدت أسيرة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت له : « يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت أن تخلى عنى فلا تشمت بى أحياء العرب فإنى بنت سيد قومى ؛ كان أبى يفك العانى ويحمى الذمار ويقرى الضعيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط : أنا بنت حاتم طى » فأجابها الرسول « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عنه . خلوا عنها فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق [2] »

وكان حاتم شاعراً معروفاً ، وفى ابياته التالية يخاطب زوجه ماوية :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك
ويا ابنة ذى البردين [1] والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له
أكيلاً فإنى لست آكله وحدى
أخاً طارقاً أو جار بيت فانى
أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف ما دام نازلاً
وما فىّ إلا تلك من شيمة العبد [2]

« يتبع »

عيسى عبيد

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٩٨ ص ٥ ــ ٢٢ .
(٢) الأغانى ج ١٦ ص ٩٧ ص ١ ــ ٥ .
(٣) قام « F. Schulthess » بطبع ديوان حاتم وترجمته والتعليق عليه

(١) ذو البردين هو عامر بن أحيمر بن بهدلة ، وحديث البردين أن الوفود اجتمعت عند المنذرين ماء السماء فأخرج المنذر بردين يبلو الوفود وقال « ليقم اعز العرب قبيلة فليأخذهما » فقام عامر بن احيمر فأخذهما واتزر بأحدهما وارتدي بالآخر فقال له المنذر « انت اعز العرب قبيلة » قال « العز والعدد فى معد ثم فى نزار ثم فى مضر ثم فى خندف ثم فى تميم ثم فى سعد ثم فى كعب ثم فى عوف ثم فى بهدلة ، فمن انكرهذا قلينا فرني » فسكت الناس فقال المنذر « هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى اهل بيتك ؟ وفى نفسك ؟ » قال « انا ابو عشرة واخو عشرة وخال عشرة وعم عشرة ، اما فى نفسي فشاهد العز شاهدى » ثم وضع قدمه قال « من ازالها عن مكانها فله مائة من الابل » فلم يقم إليه أحد من الحاضرين ، ففاز بالبردين فسمى بذى البردين » « الحماسة » المترجم

(٢) الحماسة ٩٤٧

لسان العرب

لابن منظور الافريقى المصرى

مرتبا ترتيبا حديثا ومصححا تصحيحا علميا على أصوله الخمسة وهى الصحاح للجوهرى وحواشيه والنهاية لابن الأثير والجمهرة لابن دريد والمحكم لابن سيده والتهذيب للأزهرى

ارسل عشرين قرشا صاغا باسم مدير دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف ــ بجوار زاوية الشوشترى بشارعى الموسكى والأزهر بالقاهرة ــ يصلك الجزء الأول منه فى نهاية هذا الأسبوع ومعه اشتراك فى الجزء الثانى منه .

ملاحظة : ثمن الجزء بعد ظهوره خمسة عشر قرشا ، وأجرة البريد لمن فى القطر المصرى قرشان صاغ يضعفه لمن فى الخارج .